

قسم الفلسفة السنة الدراسية 2023-2024

المستوى السنة الثانية ليسانس

L.M.D S3

المقياس: الفكر الخلدوني

الأستاذ: قريمس فؤاد

المحاضرة الرابعة

الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون

أشار ابن خلدون إلى مسألة هامة تدلّ على فهمه للشخصية الإنسانية وإدراكه لأبعاد المؤثرات الخارجية والداخلية فيها، ليفسر لنا السلوك الفردي والجماعي، وتاريخ نشأة المجتمع وأنماطه، وأسباب زواله وانهاره من خلال عقده المقارنة بين شخصية الإنسان البدوي والإنسان الحضري من حيث بيان الفروق بين الشخصيتين وأثرها، وأنه لكل واحدة منها إيجابيات وسلبيات، فمن مميزات الشخصية البدوية بساطة العيش بالاعتماد على الضروري منه في المأكل والملبس والمسكن والعادات وهذا راجع إلى ترتيب الأولويات، فالضروري أشد إالحاحا من الحاجي والكمالي، والبدوي بحكم بساطة الظروف التي ينشأ فيها لا يتطلع إلا إلى الضروري منها، ما ينعكس على طبائعه وسلوكاته في ميله إلى الخير وبعده عن الفساد والشر، يقول ابن خلدون: "وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر، قال كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، بقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر، ويصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير، وحصلت لها ملكته بعد عن الشر، وصعب L لقد أرسلت عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليها أيضا عوائده. وهذا الاستنتاج يظهر فيه أثر القرآن الكريم في طريقة تفكير ابن خلدون خاصة في تصويره للعقل ووظيفة التفكير والتعلل من حيث كونه وعي يستقر في نفس الإنسان ويدفعها من خلال القوي التي أودعها الله فيها، وتترجمها إلى معارف مختلفة. ثم يشير إلى الشخصية الحضرية وما تعانيه من ضغوط العمران، وفنون المذات، والإقبال على الدنيا والانشغال بشهواتها، تنعكس على نفسيته وتميل بها إلى التلوث والفساد بهذه المظاهر الضاربة في سقط المتاع، مما يصطلح عليه ابن خلدون بـ "النفس المتلونة وهي التي خرجت عن النفس السليمة" التي بقيت على الفطرة، والميل إلى الخير، أما النفس المتلونة

فنجدها أشد ميلا إلى الشر والفساد، يقول ابن خلدون "وأهل الحضرة، لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ، وعوائد الترف والإقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه، بقدر ما حصل لهم من ذلك". وهذه المقارنة بين الشخصيتين هي في الحقيقة مقارنة بين نموذجين داخل المجتمع، وليست مقارنة بين حالتين فرديتين عابرتين، لا سيما أن القرآن الكريم ذكر الترف الذي هو سبب فساد الأفراد والمجتمعات بفساد شبكة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات¹

الأخلاق عند ابن خلدون:

إذا كان المتن الفلسفي النيتشوي يقر بأن الإنسان هو صانع قيمه وأخلاقه، بل ويتحكم فيها كما يريد وفق طبيعة قوته وقدراته، فإن الطرح النظري الخلدوني يفكر في مسألة الأخلاق من منظور مختلف ومضاد تماما. بحيث ينظر صاحب المقدمة إلى عنصر الطبيعة، بمختلف تجلياتها كأصل وحيد للأخلاق والقيم الإنسانية. فالشجاعة مثلا ناتجة حسب تحليله المادي، عن الأصل الطبيعي البدوي للإنسان. فكلما اقترب الفرد من الحياة الطبيعية بمعناها المتوحش، ارتفع منسوبه الشخصي من قوة الشجاعة، وزادت قدرته على تحصيل الغلبة وتحقيق الحياة الآمنة، والعكس صحيح تماما. كلما ابتعد الإنسان عن أصله الطبيعي البدوي والجبلي، اقترب من أخلاق الهشاشة والضعف كالخوف والتحايل والحذر المركب، تلك الأخلاق التي يعتبرها ابن خلدون متحولة ومشوهة عن أصلها الطبيعي، لأنها أصبحت بعد حال التحول تنتمي إلى عالم المدينة المختلف والغريب، الذي يحتاج فيه المرء إلى قدرات أكثر قوة، ومن نوع مختلف للتعايش معه. وما يتطبق على الأفراد وكذلك الحيوان ينطبق على الجماعات والأمم، لهذا قال: (من كان من هذه الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشا كان أقرب إلى التغلب على سواه).² هكذا يتضح، أن العلامة عبد الرحمن بن خلدون يفكر في مسألة الأخلاق، من منظور ثابت، بسبب معالجته للقضية المطروحة بفكر الثنائيات (بادية - مدينة) و هوية الانواع غير المنسجمة في أصلها (البشر - الحيوان)، إلا أن تحليله الشمولي و المتعدد الأبعاد، كان يتم في سياق تفكير عصره و زمنه التاريخي، الأمر الذي يضفي قيمة علمية، و منهجية وحضارية على أطروحته الفكرية الخلدونية³

بالرغم من أنه لا يوجد في مؤلفات ابن خلدون شيء يشبه بحثاً أخلاقياً عملياً أو نظرياً بمعنى الكلمة إلا أننا نصادف في كتاباته هنا وهناك كثيراً من النصوص، وغالباً ما تكون طويلة إلى حد ما، التي يعرض فيها آراءه في الموضوع، وفي نفس العصر كان علماء الأخلاق الأوربيون في أغلبهم علماء دين تهمهم فقط الأخلاق الفردية بصفتها سلوكاً يمهد لنجاة الإنسان في الآخرة، ولم يهتموا إلا قليلاً جداً بما اهتم به العلماء الأقدمون.. ألا وهو علم الأخلاق الاجتماعي والمدني.. أما عند ابن خلدون فقد خصص - على العكس - الجانب الأكبر لعلم الأخلاق الاجتماعي، والمهم لديه بخاصة هو الصحة الأخلاقية للمجتمع والأصدقاء التي قد يثيرها سلوك الفرد في المجتمع. وفي الحالتين يبدي مؤلفنا "قدرياً" ملحوظة جداً واتجاهاً كبيراً إلى التشاؤم، وفيما يختص بالأفراد، رأينا كيف يؤكد أن كل أحوال أخلاقهم تأتي من الظروف المادية التي يوجدون فيها، ويضاف إلى المظهر الأول للقدريّة مظهر ثان هو الإرادة الإلهية التي غالباً ما تحدث عنها ابن خلدون: "وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له". وعندما يتحدث مؤلفنا عن مختلف ميول الإنسان فإنه يضع نفسه دائماً من وجهة نظر تأثيراتها على المجتمع، وبهذه المناسبة نرى اتجاهاته، وبالرغم من أنه لم يضع قط قواعد أخلاقية بمعنى الكلمة، وأنه يرى أن كل هذه الأمور تحدث جبراً، فإنه قد صاغ بعض الأحكام الصريحة أحياناً. ويضع ابن خلدون فوق كل الفضائل قوة الروح والاعتدال، وقد أتى - مثل الفلاسفة الأقدمين - على التوسط لما للتوسط من فضائل اجتماعية، والحق أن التوسط الذي أتى عليه مؤلفنا إنما هو شيء أكثر صرامة بكثير من المثل الأعلى للمواطن المتواضع الميسور الحال الذي وصفه أرسطو وأفلاطون. ولما كان ابن خلدون في بلد أفقر من اليونان فقد صار مشرعاً لأخلاقيات بلد فقير زادت من فقره الفوضى والاستبداد اللذان ساعدا على عرقلة كل نهضة اقتصادية. وعندما يتحدث ابن خلدون عن هذه الفضائل التي يعجب بها، يبدو أنه ينسى آراءه في أن أسلوب الحياة ناتج عن طبيعة البلد وعن ظروف الإنتاج به، وكان فلاسفة الإغريق يعتبرون أنه - حتى في المدينة الفاضلة التي يجهدون أنفسهم في تخيلها لا بد من وجود الرق، ولا بد من نوع من العزل للطبقات السفلى. وفي رأي ابن خلدون أن المجتمع المثالي الذي لا يستعبد الإنسان هو مجتمع القبيلة البدوية من الرعاة العاطلين والمتوحشين الذين يرون في تقشفهم وفي شجاعتهم أحسن الدعامات لاستقلالهم، وتبدو له هذه الحالة الشرط الوحيد للمحافظة على الفضائل العسكرية والأخلاقية للقبيلة، وما أن يلجأ الناس إلى سلطة أخرى غير سلطة جماعتهم لحماية أنفسهم حتى يقوموا بالخطوة الأولى نحو الدل الذي يعدهم للخضوع لاستبدادات مقبلة. ويقول ابن خلدون إن الخضوع للسلطات يفقد الشعب فضائله العسكرية فلا تبقى له قدرة على مقاومة العسف شأن المغارم والضرائب فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لأن في المغارم والضرائب

ضئما ومذلة". وهذا التقشف الذي يمجه ابن خلدون - وربما كان ذلك بتأثير المدارس والمذاهب التصوفية الكثيرة في عصره - قد صادفه وأعجبه في مجالات أخرى غير الحياة البدوية، وهكذا يتحدث في ثناء جم عن طلبة عرفهم وكانوا قد عاشوا طيلة سنين على اللبن وحده، ويقول إن هذا النظام جعلهم أكثر صلاحًا وأكثر نكاء. ولكن تشاؤم مؤلفنا يعاود الظهور عندما يؤكد لنا أن المواهب الطيبة لا تقاوم أبدًا تأثير الرفاهية المفسد، ويرى أن الدين نفسه لا يكون رادعا كافيًا لإبقاء الناس على الطريق المستقيم.. فهو يقول إن الإنسان يميل إلى اكتساب العادات السيئة بسرعة ولا سيما إذا كان قد ألف ملذات الحياة.. تلك هي طبيعة الناس إلا الذين آثرهم الله بفضله. ولكن ابن خلدون لم يكن قط فوضويا، إنه يثور ضد نتائج الاستبداد، ولكنه يفرق بوضوح بين الخضوع لإرادة خارجية والطاعة التلقائية لنظام اختاره المرء بنفسه و آمن به "فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبي وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي". ويفسر بهذا سيكولوجية الذين صنعوا الملحمة الإسلامية، فقد كان لهم مثل ديني أعلى، وقد ارتضوا طاعة معينة، دون أن يفقدوا شيئًا مع هذا من روحهم الاستقلالية. ذلك لأن تجانسهم جاء من داخل أنفسهم ومن حماسهم، ومن امتثالهم للقانون الديني، وليس من الخوف من أية سلطة، فكان لكل فرد ناصح يلزمه الاستمساك بالواجب. وهذا الناصح هو الدين، وفي سبيله كفروا بالثروات. ثم ضعفت هذه الفضائل وبدلا من إنسانية فجر الإسلام، ظهرت سورات الفتن السياسية. ويقول ابن خلدون إن السلطة المعتدلة التي أقامها الدين أول الأمر قد ولت وحلت محلها قوة حزب من الأحزاب وقوة السيف.. وانقضت حقيقة الخلافة ثم أصبحت الحكومة ملكية بحتة. ونحس لدى مؤلفنا ظهور الفكرة التي تعتبر المثل الأعلى للمجتمعات الديمقراطية، أعني الطاعة التلقائية للقانون الذي يصبح جزءًا لا يتجزأ من شخصية المواطن، وهذا الوضع في نظر ابن خلدون لا يتفق مع الحضارة، ولا يوجد في نظره دول متحضرة إلا ويحكمها ملك مطلق أو " أولجارشية" مطلقة. وعلى هذا لا يتحقق هذا المثل الأعلى إلا في الحالة الوحشية لدى البدو البدائيين ونراه متحيرًا حيرة كبرى بين أمرين وهو يناقش ذلك السؤال الذي سيطر في الغرب في القرن الثامن عشر، وبخاصة عند روسو، ويناقشه في عبارات شبيهة إلى حد ما بعبارات روسو، فهو كروسو يؤمن بالأثر المفسد للحضارة وللتقافة الفكرية وللرفاهية المادية في الدول الكبرى، ويعتقد الاثنان أن هذا التقدم ينطوي على الاستبداد والفساد، ويقرر المفكر أن النتيجة السيئة لذلك على الأفراد. وفي رأي ابن خلدون - ويبدو أن هذا هو ما توصل إليه كل المفكرين الذين سألو أنفسهم هذا السؤال - لأول مرة - أنه لا بد من الاختيار بين الوحشية وبين العبودية، فالاستقلال والكرامة يتنافيان مع الحياة الحضرية ومع الرفاهية اللتين تتطلبان عبودية

الأكثرية. وإنه لما يؤثر في النفس أن نرى أحد رواد علم الاجتماع الأوائل وقد أوقفه هذا التناقض الذي تحاول مجتمعاتنا الحديثة أن تجد له حلاً⁴.

قائمة المصادر والمراجع:

¹ سعاد دوفاني، الانسان والقيم عند ابن خلدون، منصة المنهل، <https://platform.almanhal.com/Files/2/67663>

² ابن خلدون، المقدمة، ج 1، دار الجيل، بيروت 138.

³ مسألة الملك والأخلاق والكتابة عند عبد الرحمن بن خلدون، الحوار المتمدن-العدد: 7218 - 2022
<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=753025> محمد يقوح،

⁴ جوستون بوتول، ابن خلدون فلسفته الاجتماعية، ترجمة، غنيم عبدون، مراجعة: مصطفى كامل فودة، أقلام عربية للنشر،

2019، ص129-134